" هبوط إضطراري "

عندما تدنى ما أملكه من نقود إلى الحد الأدني لمواصلة بقائي، قررت المغادرة فأحكمت إغلاق حقيبتي، وتوجهت مباشرة إلى محطة القطار، فاجأني موظف الحجز بمضاعفة قيمة التذكرة، أسقط في يدي، فما معي من مالٍ لايكفي ثمنًا لها، لم يكن أمامي من سبيل إلا العودة مستقلًا قطار العاشرة مساءً، فهو القطار الوحيد الذي يرتاده عامة المصريين الفقراء من جنوب الوادي، جلست على أحد المقاعد الأربعة المتقابلة، كرسي لا يختلف كثيرًا عن كرسي الترام أو مقاعد مترو الأنفاق، وكذلك أرففه العلوية، ويختلف عنهما في نوافذه المشرعة فلا سبيل لغلقها، أو المغلقة ولا جدوى من محاولة فتحها، توالت المحطات المتابعة حتى اكتظت الممرات بالأجساد البشرية، التي لا تجد ربما موضع قدم، فحمدت الله على ما أنعم به عليّ من مقعدٍ أقتعده، وما يزال في الرحلة ما يزيد على الأربعين محطة، وما يقارب الثلاث عشر ساعة أو يزيد، لم أعرف الطريق إلى دورة المياه وأنا المريض بداء الضغط العالي، وما يسببه دواؤه من إدرارٍ للبول، مخافة أن أترك مقعدي خاليًا، فأعود ولا أجده، وكبرٍ سني لا يحتمل إفتراش المساحة الخالية الوحيدة والتي تجاور الباب المفتوح بإحكام شديد، إلا أن آلام الفقرات القطنية أسفل ظهري أجبرتني على الإستلقاء على ظهري، بمحاذاة الباب المفتوح بعد خمس ساعات من مقاومة الألم الشديد، الذي بدا وكأنه لن ينتهي إلا بفصل نصفي الأعلى عن النصف الأسفل مني - قوم يا حاج...كده خطر عليك

- لا تقلق يا بني
: تلاه آخر معقبا
-يا حاج..ديروط قرّبت، وإحنا هننزل وفيه ناس هتركب، وإنت قاطع علينا الطريق !
. مددت لأحدهم يدي ليعاونني على النهوض
عدت إلى مكاني وكما توقعت لم أجده خاليًا، إلا أن المحتل الجديد أخجله شيب شعري، وهمهمات الأخرين، أنَّ هذا مكاني، فنهض تاركًا المكان لي.

مضت الساعات العشر التالية، لم يغمض لي جفن، وبالطبع لم أجرؤ على مغادرة مقعدي مرةً أخرى، وكل ما أقدمت عليه هو خلع حذائي، واكتفيت بمشاهدة أحدهم وهو يستند على حافة المقعد، ويعتلي الرف فوقي، ثم يستلقي على حقيبتي وحقائب أخرى تجاورها، وسرعان ما أطلق لأحلامه العنان.

أخيرًا اقتحمت مقلتيّ العشوائيات التي تحيط بقضبان القطار، شاهدًا رئيسًا لبلوغنا قاهرتي الحبيبة، فشرعت في إرتداء حذائي، إلا أن جميع محاولاتي باءت بالفشل الذريع، وسط دهشتي واستغرابي، فلم أجد مفرًا من تأبطه ومغادرة القطار، لأغادر من بعده باحة المحطة غارقًا في نظرات التعجب والتأفف ممن يراني، ونظرات الشك التي بدت جلية في عيون المتفحصين من رجال الأمن المنتشرون بكثافة، ولولا تأنق هندامي غالي الثمن، وحقيبتي الثمينة التي أجرها من مقبضها المعدني المفرود، لحدث ما لا استطيع تحمله من سين وجيم وأنا في هذه الحالة من التعب.

* * *